عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاسلام والفنون

بقلم الدكتور

علي احمد الزبيدي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الاسلام والموسيقى والغناء والسماع

علاقة الاديان بالفنون قديمة جدا ، فقد نشأت وتطورت اغلب الفنون ، كما قرر مؤرخو الحضارة والفن ، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاديان ، فسخرتها لخدمتها ، واستعانت بها في طقوسها ، ووظفتها لنشر تعاليمها الروحية والاجتماعية ورسمت لها النهج ، وحددت لها الاغراض والغايات وهيأت لها الادوات والوسائل والامكنة والاوقات .

وتأثرت علاقات الفنون بالاديان بما في مواقف هذا الدين او ذاك ، ازاء هذا الفن او ذاك من صرامة وتشدد او اعتدال وتساهل . وهنا برزت مواهب عباقرة الفنون وتجسدت براعتهم في التوصل الى اعمال وصيغ جديدة عجز رجال الدين عن ايجاد الحجج والذرائع المشروعة لايقافها او تجميدها . ففنون الامم القديمة استطاعت ان تبتعد بعض الابتعاد عن الخطوط التي رسمتها لها اديانها كما يلاحظ في الفنون اليونانية المتأخرة والفنون الرومانية فالفن المسرحي اليوناني استطاع ان يتحرك فينجح من معالجة صيغ دراسية لم تخل من بعض التمرد على العقائد اليونانية حتى عند اشد شعرائهم تمسكا بها كأسكيلوس وسوفوكليس . اما يوريبيدس فكان التمرد قويا في بعض مآسيه . اما الملهاة وبخاصة عند ارستوفان وميناندر فكانت الجراة اشد ، ومواطن التمرد والخروج اكثر واظهر .

ومع هذا ، فان حالات التمرد والخروج على سلطة الدين تبدو ضئيلة ضعيفة في العصور القديمة والوسطى الاوربية ، لانها عجزت عن فصم العرى بين الدين والفن ، فانحصرت الفنون في مناطق النفوذ الدينية وانطبعت بطوابعها . فبعد انتصار المسيحية في روما ، وانتشارها في القارة الاوربية ، خضع التصوير والنحت والفن المعماري والفن المسرحي وغيرها للدين الجديد ، ونشطت في خدمته . ولما انتهت القرون الوسطى بعصر النهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، تململت الفنون للانفلات من بعض القيود . وبخاصة حين ارتد الفن الكلاسيكي الى النماذج الاغريقية والرومانية اي الى عصور ما قبل المسيحية . حتى اذا اقبل العصر الحديث خرجت فنون كثيرة عن الخط الديني وشقت طرقها بعيدا عنه .

× × ×

والفنون في العالم الاسلامي لا تستثنى من هذه القاعدة او الظاهرة التاريخية اعني تعلق الفن بالدين . فما كاد الاسلام ينتصر وينتشر حتى خضع تراث الشرق الفني لسلطان الدين الحنيف فاعتنق الفنانون مبادئه او تظاهروا باعتناقها ، وتشربوا قيمه وافكاره ، واحترموا تعاليمه ، وخدموا اغراضه وغاياته . وكان اول ما لفت انظار المسلمين واثار اهتمامهم ، قوة العلاقة بين الوثنية الجاهلية وفني النحت والتصوير ، فكان موقف الاسلام من النحت صارما كل الصرامة كي يقطع كل صلة بين العرب وماضيهم واوثانهم وانصابهم وازلامهم .

وكان موقفه من التصوير ، اي رسم الصور ، اقل صرامة .

لقد كان الاسلام في انطلاقته الاولى ثورة شاملة على التأخر والتخلف والجمود والضلال في كل

مناحي الحياة ، ثورة كانت تخزن في داخلها طاقات هائلة تدفعها الى التدفق والانتشار موجة بعد موجة كدوائر الماء يلقى فيه بالحجر . فالمعابد الانيقة المزينة ، تعزف فيها الموسيقى وتزدان بالصور والتماثيل والنقوش لا تتفق والدين الاسلامي الذي يريد ان ينطلق من كل اتجاه ليصلح المجتمع العربي والبشري من الناحيتين الروحية والمادية . وهذا ما دفعه ايضا الى ان يحدد موقفا خاصا من الموسيقى والغناء لشدة تأثيرهما في النفوس ولا سيما الالحان والاغاني التي تحث على تجاوز حدود الدين او تثير الضغائن والاحقاد . وهكذا رأينا الفنون تتحول عن أساليبها الموروثة وتسير من مسارات اخرى استغرقت بمرور الزمن مراحل ومذاهب وعصورا فنية اختلفت عن مراحلها وعصورها السابقة للاسلام واهتم مؤرخو الفن والحضارة منذ القرن الماضي بهذه العصور الفنية الاسلامية فظهرت دراسات بدأ بها المستشرقون ثم العرب والمسلمون الذين اجتذبهم الموضوع فحددت دراساتهم ومباحثهم عصور الفنون الاسلامية وصنفت انواعها وكشفت خصائصها وترجمت لاشهر روادها ، وتغلغلت في كثير من التفاصيل ، فاتضح للناس تاريخ الفنون الاسلامية من عمارة وتصوير وزخرفة ونقش وخط وفسيفساء وموسيقى ، وغناء .. الخ . وعرف الناس ايضا الفنون العصرية الدخيلة ومذاهبها الحديثة كالنحت والتصوير وفنون المسرح والسينما والاذاعة والتلفزيون . وانكشف للباحثين المحدثين ما للفنون الاسلامية من ثراء جمالي واجتماعي . كما اثبتت الدراسات التحليلية والمقارنة تأثيرها في الفنون الاوربية القديمة والحديثة . فكان طبيعيا ، بعد هذا كله ، ان يعود الباحثون الى دراسة مواقف الاسلام والمسلمين من عموم الفنون او من بعضها . وادى انتشار الغناء والموسيقى والتصوير والنحت باشكالها ومذاهبها المعاصرة وامتزاجها بالاساليب الفنية الموروثة الى مبادرة الاوساط الدينية الى اعلان مواقفها وسياساتها . واشترك الادباء ورجال الفكر في الجدل الذي اتسع وتشعب فكثرت الاراء وتنوعت حتى اصبح الاطلاع على ما كتب وقيل في هذا العصر أمرا بعيد المنال . فضلا عن ميراث الجدل والخلاف الذي خلفته العصور الاسلامية المتعاقبة . فالمعلوم ان أغلب هذه الفنون كانت معروفة متداولة قبل الاسلام وبعضها كان مرتبطا بطقوس الوثنية الجاهلية لهذا بادر الاسلام الى فرض سياسة فنية ذات حدود واهداف مرسومة للحيلولة دون الارتداد عن دين الله .

وبانتشار الاسلام ، وتعاقب الازمان ، وارتقاء الحضارة وامتزاج الاقوام والثقافات ، وتقدم العلوم والفنون والاداب وتنوعها تعاظم اهتمام الفقهاء والادباء والمفكرين بالفنون وبخاصة ايام ازدهار وانتشار التصوير والغناء والموسيقى في عصور الخلافة العباسية والاندلسية والفاطمية . فتراكمت الفتاوى والاحكام والاراء والمواقف التي اعتمدت القرآن والسنة والاجتهاد . وفتح هذا الباب على الرغم من المصاعب التي اشرنا اليها ، الى اعادة دراسة مواقف الاسلام والمسلمين من فنون التصوير والغناء والسماع وغيرها من الفنون الموروثة .

اما الفنون التي لم توجد قديما ، او كانت لبعضها بوادر تتضاءل امام حجمها الحاضر كالمسرح والسينما وفنون الاذاعة فليس لدينا سوابق ووثائق تهيىء ضرورات البحث والجدل فيها ، فلجأ المتجادلون الى الاجتهاد والنظر قياسا على الفنون السابقة ، واستنادا الى التعاليم والاسس والنظرات الاسلامية في الفن والاجتماع والاخلاق وغيرها .

ولما كانت فنون الغناء والموسيقى منتشرة قبل الاسلام فقد شغل امرها المسلمين واصبح نصيبها من الاحاديث النبوية واقوال الصحابة واحكام الفقهاء أكثر من الفنون الاخرى . ولا ريب في ان الرسول (ص) واصحابه قد لاحظوا استخدام الموسيقى والانشاد في المعابد الجاهلية وغيرها وادركوا ما لها من تأثير في النفوس فوضعوا الضوابط والحدود الكفيلة بتوجيه هذا التأثير كي لا يحن ضعفاء الايمان الى اديانهم السابقة فمنعوا استعمال بعض الالات واجازوا بعضها ، وحظروا انشاد بعض الاناشيد والاشعار وأباحوا غيرها . وبادروا في الوقت نفسه الى الاستفادة من الانشاد والترجيع فنغموا الاذان وتلوا القرآن الكريم ، فابتكروا لقراءته ما سمى بالتغيير قديما والتجويد بعد ذلك . وتغنوا بالاشعار التي لا تخالف تعاليم الدين الاسلامي واهدافه الروحية والاخلاقية والاجتماعية . كل هذا يدل على ان المسلمين الاوائل قد ادركوا بفطرتهم وخبرتهم وذوقهم ما للموسيقى والانشاد من علاقات ايجابية وسلبية بالمصالح والاغراض الدينية . وكانت هذه الحقيقة الشغل الشاغل للذين صنفوا والفوا وبحثوا في الموسيقى والغناء والسماع في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فيما بعد نذكر من ذلك على سبيل المثال ما جاء في رسائل اخوان الصفا . قالوا « فصناعة الموسيقى استخرجتها الحكماء بحكمتها وتعلمها الناس منهم ، واستعملوها كسائر الصنائع في اعمالهم ومتصرفاتهم بحسب اغراضهم المختلفة . فأما استعمال اصحاب النواميس الالهية لها في الهياكل وبيوت العبادات ، وعند القراءة في الصلوات ، وعند

القرابين والدعاء والتضرع والبكاء ، كما كان يفعل داود النبي عليه السلام عند قراءة مزاميره ، وكما يفعل النصارى في كنائسهم والمسلمون في مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة ، لان كل ذلك ترقة القلوب ، ولخضوع النفوس ولخشوعها ، والانقياد لاوامر الله تعالى ونواهيه ، والتوبة اليه من الذنوب والرجوع الى الله سبحانه وتعالى باستعمال سنن النواميس كما رسمت »[1] وكانوا يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة الحانا من الموسيقى تسمى « المحزن » وهي التي ترقق القلوب اذا سمعت ، وتبكي العيون ، وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب ، واخلاص السرائر ، واصلاح الضمائر . فهذا كان احد اسباب استخراج الحكماء صناعة الموسيقى واستعمالها في الهياكل وعند القرابين والدعاء والصلوات »[2] وكان اهتمام اخوان الصفا بامر الموسيقى والسماع في النفوس استمرارا وتوليدا وتوسيعا لما ذكره ادباء القرن الثاني والثالث وما نقله الحكماء وعلماء الالحان والنغم والموسيقى كالكندي .

ولعل اكبر دليل على ما ذكرناه عناية كبار الادباء والمؤرخين ومحترفي الموسوعات بالغناء واحكامه واصوله واخباره منذ بداية ازدهار حركة التاليف والكتابة والتصنيف ، فالجاحظ كتب رسالة في « طبقات المغنين »[3] وتطرق في « رسالة القيان » الى موقف الفقهاء من الغناء والموسيقى وايدى رايه بصراحة[4] ، لان اكثر المغنيات والمازفات كن من القيان . وخصص ابن قتيبة هذا الفن بفصل من كتابه « عيون الاخبار » سماه باب القيان والمغنين والغناء واورد ابن عبدربه لهذا الموضوع ايضا فصلا طويلا في « العقد الفريد » ثم ازداد وتوسع اهتمام الادباء المتاخرين بالامر ، فالنويري يكرس له في « نهاية الارب » بابا كبيرا جدا ملأ نحو مائة صفحة متناولا بقضايا اباحة الغناء وتحريمه اخذ اكثرها من الغزالي وذكر دراسات ومؤلفات اخرى في الموضوع انتبس منها الكثير مما ورد في كتابه قال : « وقد تكلم الناس في اباحة الغناء وسماع الاصوات والنغمات والالات ، وهي الدف والبربط والقضيب والاوتار على اختلافها من العود والطنبور وغيره ، واباحوا ذلك واستدلوا عليه ، وضعفوا الاحاديث الواردة في تحريمه ، وتكلموا على رجالها وجرحوهم ، وبسطوا في ذلك المصنفات ، ووسعوا القول وشرحوا الادلة ، وطلعت من ذلك عدة تصانيف في هذا الفن مجردة له ، ومشافهة الى غيره من العلوم ، وكان ممن تكلم في ذلك وجرد له تصنيفا الشيخ الامام الحافظ ابو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي »[5] ومن اشهر المؤرخين الاوائل الذين اهتموا بالغناء والموسيقى المسعودي في (مروج الذهب) ، ومن المتاخرين ابن فضل الله العمري في (مسالك الابصار) . اما كبار المحدثين والفقهاء الاوائل فقد كان اهتمامهم كبيرا فقد اثبت البخاري ومالك ومسلم وابن حنبل والشافعي وابو حنيفة وجعفر الصادق احاديث واقوالا كثيرة للصحابة والتابعين في هذا الشأن . وتابعهم الفقهاء جيلا بعد جيل . ثم اتسعت الاحكام والدراسات عند متاخريهم كالغزالي وابن الجوزي وابن حجر العسقلاني وغيرهم وتاثرت بظروف عصورهم واحوالها ، وتقيدت بمذاهبهم الدينية والفقهية . وكان كبار الادباء من القدامى والمتاخرين في جانب الاباحة المطلقة وغير المطلقة ، اعني ان فيهم الذين يتحفظون فيأخذون ببعض القيود التي تلتزم حدود الدين والاخلاق . فالجاحظ يقول في رسالة القيان « ولا ترى بالغناء باسا اذا كان اصله شعرا مكسورا نعما ، فما كان منه كذبا فقبيح ، وقد قال النبي (ص) « ان من الشعر لحكمة » وقال عمر بن الخطاب (رض) الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » ولا ترى وزن الشعر ازال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يشرد ذلك ولا يزيل منزلته من الحكمة .

فاذا وجب ان الكلام غير محرم ، فان وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريما لعلة من العلل ، وان الترجيع له ايضا لا يخرج الى حرام ، وان وزن الشعر من جنس وزن الغناء ، وكتاب العروض من كتاب الموسيقى ، وهو من كتاب حد النفوس ، تحده الالسن بحد مقنع ، وقد يعرف بالياجس كما يعرف بالاحصاء والوزن ، فلا وجه لتحريمه ولا اصل كذلك في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه (ص) .

فان كان ، انما يحرمه لانه يلهى عن ذكر الله فقد تجد كثيرا من الاحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين واقتناص الصيد والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله ، ونعلم ان قطع الدهر بذكر الله لمن امكنه اقبل ، الا انه اذا ادى الرجل الفرض فهذه الامور ... نزعه الناس[6] هذا هو راي

(١) رسائل اخوان الصفا ١٨٦/١ .
(٢) نفسه ١٨٧/١ .
(٣) الرسالة منشورة في هامش طبعة قديمة لكتاب الكامل للمبرد طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .
(٤) رسائل الجاحظ (تحقيق عبدالسلام هارون) القاهرة ١٩٦١م .
(٥) النويري : نهاية الارب ١٢٧/٤ ط . دار الكتب .
(٦) رسائل الجاحظ ١٦٠/٢ .

الجاحظ وقد مهد له بذكر سماع عبدالله بن جعفر الطيار لجوار يتغنين ، ولغلامه (بديع) يتغنى وقوله لما عابه بذلك الحكم بن مروان : « ومما يدل ان احذق الجيد من اشعار العرب والقيه على الجواري فيتمرنن به ويتمذرته بحاوقهن وتشمين (٧) .

اما ابن عبدربه فقد استهل كتابه (الياقوتة الثانية في الغناء ..) بقوله :

« قد مضى قولنا في اعاريض الشعر وعلل القوافي ، وفسرنا جميع ذلك بالمنظوم والمنثور ، ونحن قائلون بعون الله واذنه في علم الغناء واختلاف الناس فيه : ومن كرهه ولاي وجه كرهه : ومن استحسنه ولاي وجه استحسنه .

وكرهنا ان يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الاداب والحكم والنوادر والامثال ، عطلا من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، وسلاة الكئيب ، وانس الوحيد ، وزاد الراكب ، لمظلم موقع الصوت الحسن من القلب واخذه بمجامع النفس » ويمضي ابن عبدربه على هذا المنوال فيورد اقوالا واشعارا تؤيد ميله الواضح الى الاباحة ثم يورد الكلام الذي تردد وشاع في كتب الادب والفقه بعد ذلك وهو قوله : « اختلف الناس في الغناء : فاجازه عامة اهل الحجاز ، وكرهه عامة اهل العراق . فمن حجة من اجازه ان اصله الشعر الذي امر النبي (ص) به ، وحض عليه ، وندب اصحابه اليه ، تجند به على المشركين . فقال لحسان : شن الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » ثم ياتي ابن عبدربه باقوال تؤيد اباحة الشعر ، ثم ينتبه خشية ان يفهم ان موقفه يتعلق بالشعر وحده فيستدرك قائلا : « فلما اعياهم القدح في الشعر والقول فيه ، قالوا : الشعر حسن ولا نرى ان يؤخذ بلحن حسن (اي كرهوا تلحينه) واجازوا ذلك في القرآن وفي الاذان ، فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والاذان احق بالتنزيه عنه . وان كانت غير مكروهة ، فالشعر احرج البوا لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر . وما الفرق بين ان ينشد الرجل :

اتعرف رسما كاطراد المذانب

مترسلا ، او يرفع بها صوته مرتجلا . وانما جعلت العرب الشعر موزونا لمد الصوت فيه والتدندنة . ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور .

(٧) نفسه .

وهذا الكلام يكشف ويؤكد موقف ابن عبدربه من جانب الاباحة . ولهذا يعقب عليه بقوله :

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسانه بقول النبي (ص) لعائشة : اهديتم الفتاة الى بعلها ؟ قالت نعم . قال : وبعثتم معها من يغني ؟ قالت : لا . قال : ان ما علمتم ان الانصار قوم يعجبهم الغزل ؟ الا بعثتم معها من يقول :

اتيناكم اتيناكم
تحيكم تحييكم
ولولا الحنطة السمرا
، لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبدالله بن عبدالله بن اويس ابن عم مالك . وكان من افضل رجال الزهري قال : مر النبي (ص) بجارية من ظل نادع . وهي تغني :

هل علي ويحكم
ان لهوت من حرج

فقال النبي (ص) : لا حرج ان شاء الله : وعقب ابن عبد ربه قائلا : والذي لا ينكره اكثر الناس غناء القصب : وهو غناء الركبان . وبعد ان يورد جملة من اقوال الصحابة واخبارهم المؤيدة للاباحة ينتقل الى مسالة كره الغناء فيقول :

ومن حجة من كره الغناء ان قال : انه ينفر القلوب ، ويستفز العقول ، ويستخف بالحليم ، ويبعث على اللهو ، ويغني على الطرب ، وهو باطل في اصله . وتاولوا في ذلك قول الله عزوجل : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا) . وقد ادرك ابن عبدربه ضعف هذا التفسير للاية لعموم معنى اللهو ، وعدم اختصاصه بالغناء . فعلق على هذا قائلا : واختلفوا في التاويل . انما نزلت هذه الاية في قوم كانوا يشترون الكتب من اخبار العجم والاحاديث القديمة ، ويشاغلون بها القرآن ، ويقولون انها افضل منه . وليس من سمع الغناء يتخذ ايات الله هزوا . والدليل الوجود في هذا (يعني الغناء) ان يكون مبناه سبيل الشعر فحسنه حسن وقبيحه قبيح (٨) .

ومن الجدير بالذكر ، ان هذه الاية ثلث من مقدمة حجج الذين يقولون بكراهة الغناء والسماع بعد عصر ابن عبدربه . اما الذين قالوا بالاباحة ، فقد كرروا اعتراض ابن عبدربه وزادوه تفصيلا ، واستدلوا ذلك بطائفة من الاخبار والاقوال .

(٨) العقد الفريد ٦/٥ ـ ١٠ (ط . دار الكتب) .

لقد وقفت على بعض اقوال ابن عبدربه ، لان العقد الذي كتبه من اقدم ما اوردته مصنفات الادب الكبيرة التي وصلت الينا . واكثرها اخبارا واقوالا . ولا ننسى انه اندلسي وعموم اهل الاندلس مالكيون يتابعون عامة اهل الحجاز الذين يبيحون الغناء والسماع كما ذكر وينطبق هذا ايضا على عموم اهل المغرب اي الشمال الافريقي العربي كما نقول اليوم. وعدا يسير ذيوع الغناء والسماع في الاندلس والمغرب العربي والاسلامي ولا سيما في حواضره الكبيرة .

اما مباحث الفقهاء السابقين امثال ابن عبدربه، والمعاصرين واللاحقين من المتاخرين . فيؤلف ما تبوء مكتبة ضخمة . ولكن ما ذكره ابن عبدربه على الرغم من قصره بالقياس الى كتابات الفقهاء والادباء المتاخرين . يرسم الخطوط العريضة . والاتجاهات الرئيسة ويحدد المحاور التي دارت عليها مواقف ادباء العرب والمسلمين من الغناء والموسيقى والسماع بوجه عام .

اما التفاصيل فتشغف بها مصادر الفقه والفتوى . وطائفة من مصادر الادب واغلب كتب الموسيقى والغناء . وقد الم بها الباحثون المحدثون من المستشرقين والعرب منذ اوائل واواسط القرن الماضي : وفي طليعتهم المستشرق (فارمر) وهو اشهر واعلم المستشرقين في تاريخ الموسيقى العربية . ومن شاء الاطلاع فليقرأ كتابه (تاريخ الموسيقى العربية) ولكن في شيء من الحذر . لانه يحشر المواد والمعطيات من كتب التاريخ والفقه والادب والتصوف من غير ان يتوقف ليلاحظ ويدرس ما بين اراء الصوفية . ومواقف الادباء . واحكام الفقهاء من فوارق في المضمون والدافع والهدف . وقد تحسن الاشارة الى ان (فارمر) يبحث بمنهج وروح المستشرق الذي لا يدين بالاسلام . فهو لا يلام اذن . على ما في بعض اقواله من نبرات والفاظ قد تجرح او تمس عقيدة المسلم . ولكن يلام المسلم الذي يناقرها او يقبلها على علاتها . كما يلام المسلم الذي يغضب ويثور وينكر الجهود العلمي الذي بذله (فارمر) لدراسة الموسيقى والغناء العربيين بمنهج علمي وروية تاريخية شاملة .

مهما كان . فنحن لا نستطيع في بحث عاجل عن مواقف الاسلام والمسلمين من الفنون ان نتوقف طويلا عند كل فن . فقيما يختص الغناء والسماع لا تخرج الدراسات القديمة والحديثة عن هذه المحاور الثلاثة . وهي التحريم او المنع الجزئي . والكراهة التي قال بها ائمة الفقهاء العراقيون . والاباحة التي اكدها اغلب فقهاء الاسلام بشرط ان لا تكون مطلقة اي مقيده ببعض القيود . وقد سبقهم اليها عامة اهل الحجاز . وقد اكد فارمر في مطلع الفصل الثاني من كتابه ان « من اعظم المسائل المحيرة في الاسلام موقفه من الموسيقى » فقد تناقش فقهاؤه قرونا فيما اذا كان الاستماع للموسيقى « السماع » حراما ام لا . وليس من اليسير ان ندرك كيف بدأت المشكلة ؟[9] ثم يشير الى ان التحريم وحتى الكراهة لا تقطع بها اية صريحة في القرآن الكريم ، ثم يحاول ان يعلل التحريم والكراهة بارتباط الموسيقى والغناء واقترانهما بالخمر والنساء ، زاعما ، وهذا اضعف جانب في تعليله ، ان هذا الامر ليس جديدا على الشعوب السامية : « لان العربيين والفينيقيين ايضا كان فيهم المتشددون الذين حاربوا هذه الاشياء»[10] وهذا التعليل الذي يعتمد المقارنة بين الشعوب السامية التي عاشت في بيئات وعصور تاريخية متباعدة : تعليل مصطنع يقوم على مجرد الحدس . وكثيرا ما يقع المستشرقون في خطأ كهذا : لان جوهر الدعوة الاسلامية نورى جذري (راديكالي) كما يقول الاوربيون : وقد انطلق لاستئصال ما رآه فاسدا في المجتمع الجاهلي واديانه ونظمه . دون ان يهتم بموقف الذين رفضوا هذا الفاسد او قبلوا به قبل الاسلام . ويخبرنا (فارمر) ان المستشرقين قد انقسموا على انفسهم في مسألة اصل تحريم الاسلام السماع : « فنسبه جماعة الى النبي (ص) نفسه . وتمسكت طائفة اخرى بان الراي من وضع فقهاء العصر العباسي الذين حسدوا الموسيقى والموسيقيين ! ! ! لما لقوه من تشجيع عظيم »[11] ثم يقول ان حل المشكلة يبدو سهلا عند الرجوع الى القرآن اولا تحكم المفسرين وتاويلهم ، ولولا وجود احاديث تؤيد الفريقين[12] .

والحق ان تعدد الاحاديث والاقوال والاحكام بشان الغناء والسماع والتصوير تدعو الى التأني والتأمل الدقيق لما تنطوي عليه من تناقض . فعامة فقهاء العراق وعلى راسهم ائمة المذاهب الثلاثة : ابو حنيفة وابن حنبل والشافعي واصحابهم افتوا بكراهة الغناء والسماع وفيدوا غير المكروه منه بقيود . ومع هذا فان هذه الفنون وصلت الى اوج ازدهارها في العراق اي في بيئة هؤلاء الائمة الثلاثة انفسها . فكيف نفسر هذه الظاهرة ؟ .

الجواب ان ازدهار الحضارة وتطور وتغير

---

(٩) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ٣١ ـ ٣٢ .
(١٠) نفسه ٣٣ .
(١١) نفسه .
(١٢) نفسه .

الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وامتزاج وتعايش الثقافات والاقوام وتمركز الحكم وتراكم الثروات في العراق في مطلع العصر العباسي ادى فيما ادى ، الى ازدهار الغناء والموسيقى والى ازدياد الاقبال عليها وتمثل الفقهاء قد ادركوا ان الافتاء بتحريمها لا يوقف انتشارها هذا فضلا عن افتقار التحريم الى ادلة صريحة ، ووجود احاديث واخبار تؤيد الاباحة . ثم ان التحريم يخلق عددا كبيرا من المسائل النظرية والتطبيقية . فما هو حكم الشرع على المغني او المصور في حالة (ارتكابه) هذا العمل الفني (المحرم) كيف يعاقب ويحد . هل يطبق عليه حد شارب الخمرة او حد الزاني او اي حد آخر ؟ ثم ما هي انواع الغناء والالات الموسيقية التي يحرم استعمالها ؟ وفي اي الاحوال ؟ وهل تقبل شهادة المغني والموسيقي او لا تقبل ؟ وهل يرث ورثته (آلاته) المحرمة وثروته التي جمعها من مزاولة فنه المحرم ؟ وهل يجوز ان تباع وتعطى اثمانها لورثة او انها تعود لبيت المال ؟ وهل يحق للمسلم تكسير آلات الغناء دون ان يعاقب كما هي حالة من يكسر قناني الخمرة وآلاتها .. الخ .

ثم : الا يؤدي مثل هذا التحريم (الاجتهادي) الذي يتجاهله كثير من الناس الى الاستهانة بحرمة الدين ؟

لا ارتياب في ان ائمة الفقهاء لم تغب عنهم هذه المشاكل والتحرزات ، فوجدوا ان من الخير القول بالكراهة لا بالتحريم لكي يبتعدوا من انتشارها في مجتمع امتزجت فيه القوميات والاجناس والاديان والثقافات وتوفرت فيه ظروف ودوافع ووسائل اهتمام الخاصة والعامة بالغناء والموسيقى حتى ان اولي الامر انفسهم ، من خلفاء ووزراء وولاة وكتاب كانوا يكثرون من احياء مجالس الغناء والعزف والسماع ويقتنون نفيسات القينات المغنيات ، بل ان عددا من الخلفاء واولادهم كانوا من محترفي الغناء والموسيقى كابراهيم بن المهدي واخته علية وابن عيسى ابن الرشيد والخليفة الواثق وغيرهم ممن ذكرهم ابو الفرج صاحب الاغاني والصولي وغيرهما[١٣] ولم يؤد تشدد الفقهاء في التحريم او التكفير والعقوبة الى اضعاف موجات انتشار العزف والغناء والسماع في جميع الاوساط . وحينما يفكر المرء في جميع هذه الآلام وانواع العقوبات التي لاقاها الموسيقيون : يعجب من نجاح الموسيقى في العصور الاسلامية . ولكن الحقيقة ان اقوال الفقهاء في السماع لم تثعد دائرة الوعظ الى الحياة العملية : على الرغم من تشددهم . وان هؤلاء المتهمون بالخطيئة في عالم الموسيقى يجدون على الدوام التاويلات التي تبرر اعمالهم . يصور دنانير احد الاخبار في العقد الفريد احسن تصوير . فقد راى سليمان بن يسار « سعد ابن ابي وقاص في منزل بين مكة والمدينة . فقام له معلى فاستلقى عليه ، ووضع احدى رجليه على الاخرى ، وهو يتغنى ، فقال : سبحان الله يا ابا عبد الله . تفعل هذا وانت محرم ؟ فقال : يا ابن اخي ، وهل تسمعني اقول هجرا ؟[١٤] فليس من المستغرب واحوال العصر العباسي كما وصفناها ان يسبغ من لم تحرمه اية صريحة ولا سنة قاطعة متفق عليها بل ان العصر قد احتمل شيوع بعض ما حرم باتفاق . اليست الخمرة محرمة نصا وسنة ؟ ومع هذا وجدنا خاصة العصر وعامته يشربونها والشعراء يصفونها بشغف حتى جعلوها فنا مستقلا كبيرا من فنون الشعر . والزنا محرم ومع هذا فقد كثر الفساق والمجان . مع العلم ان الخمر والزنا لا يثيران مشاكل فقهية لان التحريم صريح والحد متفق عليه بخلاف الموسيقى والغناء والسماع . لا اقصد بكلامي هذا تبريرا او قبول انتشار المحرمات ولكن اريد ان اؤكد ان في مجتمع العراق العباسي وفي المجتمع الاندلسي ايضا حقائق ووقائع وظروفا واحوالا تفرض مواقف واحكاما و (سياسات) فقهية ولا سيما ازاء ما لم يرد بشانه نص صريح من القرآن والسنة ، فكان من الطبيعي ان يتأثر التأويل والاجتهاد بكل هذا ، وهذا ما كان ولا ارتياب في ان هذا التعليل افضل واصح من قول فارمر بان (اللاهوتيين) على حد تعبيره ، (يعني الفقهاء) قد حسدوا الموسيقى والموسيقيين لما لقوه من تشجيع عظيم فوضعوا الاحاديث والاخبار القائلة بكراهة الموسيقى والغناء . فالحسد وحده لا يكفي لتعليل الظواهر الفنية والعلمية والاجتماعية ، فضلا عن ان الذين يمكن ان يعتمدوا على الحياة والمال من الموسيقيين والفنيين كانوا يعدون على الاصابع بينما الالاف منهم يعانون ضنك العيش في الاوساط البعيدة عن قصور الخلفاء والخاصة .

وكانت مادة البحث الفقهي في الغناء والموسيقى في مطلع القرن الثاني لا تتعدى تاويل بعض الآيات وعدد صغير من الاحاديث والافعال النبوية وبضعة اقوال وافعال منسوبة للصحابة والتابعين مثبت تزداد وتتضخم هي وتفاسيرها وتاويلاتها بمرور

---

(١٣) انظر اخبار هؤلاء وغيرهم في الاوراق للصولي (اشعار اولاد الخلفاء) وتراجمهم في كتاب الاغاني .

(١٤) قارن : المرجع نفسه ٤ وهامشه في العقد الفريد ١٧٨/٣ (ج ٦/طبعة دار الكتب) .

الزمن . ثم انضافت اليها احكام ومواقف واعمال ائمة المذاهب الاربعة ورؤسائها ومباحث الفقهاء الاخرين . ثم انضمت اليها عند ازدهار حركة الترجمة والنقول والمقتبسات التي استعارها الادباء والفلاسفة والمتصوفة وغيرهم من الكتب والرسائل اليونانية المترجمة . حتى اذا وصلنا الى القرن الخامس للهجرة تضخمت مادة البحث بما اضافته الاجيال المتعاقبة التي اشتغلت بالمعارف والعلوم المذكورة فظهرت المباحث العميقة المتعلقة بتاثير الموسيقى والغناء في النفوس والاجسام والعقول . والدراسات (الجمالية) والتقنية في علوم الانغام والاصوات وصناعة الآلات وغير ذلك مما يتصل بالموسيقى والغناء والسماع . كانت هذه المباحث المختلفة هي الجديد المضاف الى المقولات الفقهية المحصورة في دائرة التفسير والحديث والسنة . وقد ظهر تاثير هذه الاضافات الجديدة فيما كتبه وتناقله المتصوفة بشأن السماع كما ظهر في مصنفات ورسائل فلاسفة الاسلام ومفكريه كابن سينا والفارابي والغزالي وابن رشد وغيرهم . بل ان هذا التاثير الجديد امتد الى ابحاث كبار الفقهاء المتاخرين بما فيهم كبار الملتزمين بالسلفية والمتزمتين الاشداء فاضطروا الى التطرق الى بعض جماليات الموسيقى والغناء والسماع ولا سيما من حيث تاثيرها في النفوس والاجسام ومن حيث تاثيرها في (فلسفة) العقيدة والفكر الديني بوجه عام . وخير نموذج يؤيد هذه الظاهرة الفقهية السلفية الصفحات التي كتبها ابن الجوزي في (تلبيس ابليس) عن سماع المتصوفة وعلاقته الوثيقة بنظريتهم في الوجد والعشق الالهي وكون العشق كما قال يدفع الانسان الى تخيل المعشوق (الله) على صورة المخلوق الذي يقوم عليه عشق الانسان للانسان . وهذا في نظرهم تشبيه او تجسيم للذات الالهية المنزهة عن كل تشبيه وتجسيم وكانه بذلك يرد بطريقة غير مباشرة على الغزالي الذي فلسف العشق على الطريقة الصوفية وصنفه الى اصناف مادية ومعنوية . مبعدا الاصناف المادية منها عن العشق الالهي الذي يقوم في نظره على القيام بالافضال والقدرات والصفات الالهية وكلها معنوي روحي لا صلة له بالتشبيه والتجسيد المادي.

وهكذا تضخمت المواد والمعطيات التي يتالف منها مبحث الغناء والموسيقى والسماع بحيث يمكن تصنيفها في اربعة اقسام رئيسية هي الآيات والاحاديث وافعال الرسول (القرآن والسنة) واقوال الصحابة والتابعين التي استند اليها القائلون بالتحريم والمنع والكراهة . ثم الآيات والاحاديث والافعال والاقوال التي اعتمدها القائلون بالاباحة ثم المواد الثالثة التي تالفت من احكام واقوال ائمة المذاهب الاربعة ورؤسائها واتباعها . واخيرا او رابعا : المواد الجديدة التي اضافتها مباحث رجال الفكر الاسلامي التي درست الانواع الثلاثة المذكورة وناقشتها ودرستها على ضوء ما افاده الفكر الاسلامي من الثقافات والعلوم الدخيلة والاصيلة والمترجمة كالفلسفة والتصوف وعلوم الطبيعة والرياضة من جهة ، وعلى ضوء ما يفرضه الواقع الاجتماعي والفكري والديني وحتى السياسي في العصور السياسية والعصور التاريخية الثانية . وخير من يمثل هذا التيار او الاتجاه الجديد حجة الاسلام الغزالي في كتابه الشهير ـ احياء علوم الدين ـ الذي استعرض معطيات الاقسام الثلاثة الاولى وعمد الى التوفيق بين القديم والجديد لينتهي الى اباحة السماع مع تقييده ببعض القيود حتى انه استهل فصل او كتاب (آداب السماع والوجد) في (الاحياء) بقوله :

اعلم ان قول القائل : السماع حرام معناه ان الله يعاقب عليه ، وهذا امر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة بالنص او القياس على المنصوص . واعني بالنص ما اظهره صلى الله عليه وسلم بقوله او فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من الفاظه وافعاله فان لم يكن فيه نص ، ولم يستفهم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات . ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس . ويتضح ذلك من جوابنا عن ادلة القائلين الى التحريم . ومهما تم الجواب عن ادلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في اثبات هذا الغرض ، ولكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على اباحته . وقد دار ما كتبه الغزالي بعد ذلك على المحاور الاربعة التي ذكرناها فاستهل الكتاب كما سماه بتمهيد في ذكر : اختلاف العلماء في اباحة السماع وكشف الحق فيه وبيان اقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه ، واتبعه ببيان الدليل على اباحة السماع ثم انتقل الى فصل ثالث في بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها . وبحث الباب الثاني في آثار السماع وآدابه[15] .

وفي الجهة المقابلة او المضادة يمكن اتخاذ ما كتبه ابن الجوزي في تلبيس ابليس نموذجا لموقف الفقهاء المتشددين وقد دار ما ذكره حول الموضوعات التالية :

١ ـ ذكر تلبيس ابليس على الصوفية في السماع والرقص والوجد .

---

(١٥) الاحياء .

٢ ـ ذكر الادلة على كراهية الغناء والتوجع والمنع منهما .

٣ ـ ذكر الشبه (جمع شبهة) التي تعلق بها من اجاز سماع الغناء[١٥] .

ويفهم من كلام ابن الجوزي ان الخوض في هذا الموضوع قد كثر وطال قال:وقد تكلم الناس فاطالوا فمنهم من حرمه . ومنهم من اباحه من غير كراهة ومنهم من كرهه مع الاباحة .

ولم يذكر ابن الجوزي الغزالي بين من اباحه تصريحا بل اشار اليه تلميحا ولا ريب في ان الغزالي كان احد المقصودين بالحملة العنيفة التي شنها ابن الجوزي على المتصوفة ومن ايدهم في اباحة السماع[١٦] .

والحق ان النهج الذي سلكه القدماء من فقهاء وادباء ومتصوفة وغيرهم قد يسر الامر على الباحثين المعاصرين لانهم جمعوا المواد اللازمة على الصورة التي اشرت اليها .

واللاحظ ان الحجج والادلة المأخوذة من القرآن الكريم والحديث والسنة ليست بالكثيرة . والآيات التي استند اليها الطرفان قليلة ولا تتعلق الغناء والموسيقى والسماع بالذات . ولكن كل طرف فسر الآية وتأولها لاسناد رأيه وموقفه لانه لم يجد آيات تحلل او تحرم صراحة . فالذين قالوا بالاباحة تأولوا قوله تعالى « يزيد من الخلق ما يشاء » بان المقصود منها هو الصوت الحسن في حين ان الجهة المعارضة تاولوا الآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا » وقد مر بنا ان ابن عبدربه يرى انهم اخطأوا في التاويل : قال : انما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من اخبار الفرس والاحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن ويقولون (عليهم اللعنة) انها افضل منه . وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوا » وقد زاد القائلون بالاباحة رأي ابن عبد ربه بل اخذ به احد كبار المتشددين بالتحريم وهو ابن الجوزي واستدل القائلون بالاباحة بقوله تعالى « ان انكر الاصوات لصوت الحمير » لاتخاذها عندا (غير مباشر) لتحليل انشاد الشعر والغناء به وتحليل استعمال جميع الآلات الموسيقية اذا لم يكن سماعها لغرض ارتكاب المحرمات كالسكر والزنا . كما فعل الغزالي[١٨] . وقد أول ايضا الآية «وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب» تأويلا بعيدا لتحليل السماع الذي يحرك الشوق الى من يباح وصاله لمن يشتاق زوجته ليصفي الى غنائها[١٩] .

واحتج القائلون بالتحريم والكراهة ايضا بقوله تعالى : « افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون » على سبيل التأويل ايضا بحجة ان السمر يعني الغناء بلغة حمير استنادا الى تفسير ابن عباس وغيره[٢٠] وواضح ان الآية لا تصرح بالتحريم حاولوها لهذا الغرض . اما المتصوفة فقد اعتمدوا في التأويل كعادتهم فاولوا آيات كثيرة لتحليل وتوليد الوجد الصوفي الذي يؤدي اليه السماع[٢١] . فقوله تعالى « ولم يذكر الله تطمئن القلوب » وقوله عزوجل « مثاني تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » وقوله جل وعلا « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله تعالى « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » وعقب الغزالي : وكل ما يوجد عقيب السماع في النفس فهو وجد فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب . كل ذلك وجد[٢٢] واهم ما يخص الاستدلال بالقرآن في هذه القضية عدم نزول آيات تحرم الغناء والموسيقى والسماع فاستدل المختلفون بالتأويل وكان هذا من اقوى حجج القائلين بالاباحة . الذين وجدوا في الحديث والسنة ما يعزز موقفهم وموارد الحديث والسنة التي يعتمد عليها سيمو السماع والغناء ليست بالقليلة ، وفيها ما هو ضعيف ، او مختلف على متنه ولكن فيها من الصحيح ما يكفي للاحتجاج والاستدلال . وقد ذكرنا بعضها وهو حديث الجارية التي زوجتها عائشة ارنبا ولم ترسل معها من يغني لها كما كان يفعل رسول الله (ص) ولا موجب لاعادتها[٢٣] هنا . وقد ساق اكثرها المستشرق فارمر نقلا عن الغزالي ولكنه لم يأخذ بتصنيف الغزالي الذي نظم المواد وتسقها . وهي في جملتها احاديث قليلة مقبولة ، واخبار تتضمن اقوالا وافعالا للرسول (ص) . اما الاحاديث فقد بدأ بها الغزالي بعد ذكره الآية التي اشرنا اليها قبل قليل . قال : وفي الحديث « ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت » وقال (ص) « الله اشد اذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته » وفي الحديث في معرض المدح لداود (ع) انه كان حسن الصوت في التياحة على نفسه وفي تلاوة

---

(١٦) تلبيس ابليس .
(١٧) نفسه .
(١٨) الاحياء ٢/٢٧٨ .
(١٩) نفسه ٢/٢٧٩ .
(٢٠) نفسه ٢/٢٩٦ .
(٢١) يشار الى بعض مؤلفاتهم .
(٢٢) الغزالي نفسه .
(٢٣) الغالي : ص .

الزبود .... وقال الرسول (ص) في مدح أبي موسى الاشعري ولقد اعطي مزمارا من مزامير داود »[24] اما الاخبار التي تتضمن قولا او تصف فعلا لرسول الله (ص) فهي اكثر من الاحاديث المفردة . فمنها خبران عن عائشة (رض) يقول اولهما : « ان ابا بكر (رض) دخل عليها وعندها جاريتان في ايام منى : تدففان ، تضربان بالدف ، وتضربان ، والنبي (ص) متغش بثوبه . فانتهرهما ابو بكر ، فكشف النبي (ص) عن وجهه ، وقال : دعهما يا ابا بكر ، فانها ايام عيد» ويقول الثاني : دخل علي رسول الله (ص) وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث . فاضطجع في الفراش ، وحول وجهه . فدخل ابو بكر (رض) فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله (ص) فاقبل عليه رسول الله وقال : دعهما ، ولما غفر خبر آخر جاء في اسد الغابة يقول : مر رسول الله (ص) بحسان ابن ثابت ومعه اصحابه سماطين . وجارية له يقال لها سيرين تختلف بين السماطين . وهي تغني فلم يأمرهم ولم ينههم[25] .

ودخل الرسول (ص) بيت الربيع بنت معوذ وعندها جواري يغنين . فغنت احداهن عندما دخل النبي (ص) وفينا نبي يعلم ما في غد

فقال محمد (ص) : دعي هذا ، وقولي ما كنت تقولين[26] .

وهناك روايات اخرى ذكرتها بعض المصادر المتأخرة والقديمة . واوثقها خبر انشاد نساء المدينة عند استقبال النبي (ص) وهن يضربن بالدفوف :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

ولم ينه الرسول عن ذلك .

واحتج القائلون بالاباحة بانواع اخرى من الغناء والانشاد لم ينه عنها الرسول (ص) والصحابة وكانت قائمة كلها قبل الاسلام بعد ان غير المسلمون وطوروا الفاظ ومضامين الكثير منها . وقد صنفها وصنفها الغزالي مضمنا كلا منها الاخبار والاحاديث التي ذكرنا طائفة منها . وهي على ما ذكر سيدة :

الاول — غناء الحجيج : فانهم يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء ، وذلك مباح لانها اشعار تتضمن وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها.

الثاني — ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو ، وذلك مباح كما للحاج .

الثالث — الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت القتال ... يعني ما يرتجزه وينشده المقاتلون .

الرابع — اصوات النياحة وتمانيها وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن وهي قسمان محمود ومذموم .

الخامس — السماع في اوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له : وهو مباح ان كان ذلك السرور مباحا كالغناء في ايام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة . وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز . وكل ذلك مباح لاجل اظهار السرور به ... ومن هذا القسم ساق الغزالي احاديث عائشة (رض) سالفة الذكر واشار توثيقا لها الى ان بعضها جاء في الصحيحين يعني صحيح مسلم وصحيح البخاري. قال: فزيدة الاحاديث حكمنا من الصحيحين وهو نص صريح في ان الغناء واللعب ليس بحرام وفيه دلالة على انواع من الرخص .

السادس — سماع المشاق تحريكا للشوق وتسلية للنفس .. وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته او سريته .

السابع — سماع من احب الله وعشقه واشتاق الى لقائه .. الخ .

هذه الاصناف باستثناء السابع كانت شائعة في الجاهلية وقد ابيحت في الاسلام او لان القرآن والسنة . لم تنه عنها ولكن تعاليم الاسلام وادابه فرضت عليها تغييرات تناولت الشكل والمضمون .

وكانت هذه الاحاديث اضافة الى الآيات القرآنية الكريمة عمدة الذين قالوا بالاباحة سواء كانت مطلقة ام مقيدة .

اما القائلون بتحريم الغناء والسماع فقد احتجوا بما روى جابر عن النبي (ص) انه قال : كان ابليس اول من ناح واول من تغنى . واحتجوا بما روى ابو امامة عنه (ص) انه قال : « ما رفع احد صوته بغناء الا بعث الله له شيطانين على منكبيه

---

(24) انظر فارمر : المرجع ٣٧ .

(25) ذكر فارمر هذا الخبر بصفة اخرى ، وقد اثبت د. حسن نصار نص الخبر في الهامش كما جاء في « اسد الغابة ٥/٩٦ » انظر فارمر : المرجع ٣٧ .

يضربان باعقابهما على صدره حتى يصمت» والحديث الاول مشكوك فيه وينسب ايضا الى الامام علي .

اما الثاني فقد اخرجه ابن ابي الدنيا في كتابه (ذم الملاهي) والطبراني في (المعجم الكبير) وهو حديث ضعيف . ويظهر ان الغزالي الذي يؤيد الاباحة تقصد تقديم ادلة المتدينين الضعيفة .

واحتجوا بما روى عتبة بن عامر ان النبي (ص) قال : كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل الا تاديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته » ويعلق الغزالي قائلا قوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة[٢٦] .

واحتجوا بما روى عن عائشة ان النبي (ص) قال : ان الله تعالى حرم القينة وبيعها وشراءها وتعليمها . ويرى الغزالي ان هذا يشير الى قيان النخاسات لا غير .

ونقلوا ان عبدالله بن عمر سمع صوت زمارة راع فوضع اصبعيه في اذنيه وقال حين سئل عن السبب : رايت رسول الله (ص) سمع زمارة راع ففعل مثل هذا .

وهذا الخبر لا يدل على التحريم ولا يقطع بالكراهة لان الخبر لم يشر الى ما كان يغني به الراعي وكيف كان يزمر فلربما كانت الاغنية فاجرة او مبتذلة او مثيرة للغرائز والاحقاد[٢٧] .

واحتجوا بما روى عن عبدالرحمن بن عوف ان الرسول (ص) قال : انهيت عن صوتين احمقين فاجرين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة . وروى هذا الحديث بطريق اخر زيادة (نغمة لعب ولهو ومزامير الشيطان) واستندوا الى ما روى عن ابن عباس ان النبي قال : بعثت بهدم المزمار والطبل . وهو حديث ضعيف . وقد نقل بطريقة اخرى بصيغة اخرى وهي « بعثت بكسر المزامير » . واستدلوا بما روى عن الامام علي بن ابي طالب ان النبي (ص) . قال : اذا فعلت امتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها : اذا اتخذت القيان والمعازف .

وذكرت الخصال الخمس عشرة باسناد آخر لابي هريرة . وجاء في كتاب السنن لابن ماجه خبر باسناد الى صفوان بن امية قال : كنا مع رسول الله (ص) فجاء صعر بن فرة فقال : يا رسول الله ان الله عز وجل قد كتب على الشقوة فما اراني ارزق

---

(٢٦) الغزالي نفسه .
(٢٧) تلبيس ابليس ٢٢٤ .

الا من دفي بكفي فاذن لي في الغناء في غير فاحشة . فقال رسول الله (ص) لا اذن لك ولا كرامة ولا نعمة عين . وقد وبخ الرسول عمرو وانذره بالعقاب ان فعل ما ينهاه عنه .

وعلى الجملة كانت هذه المجموعات من الايات وتفاسيرها ومن الاحاديث والسنة واحكامها مدار مباحث ومواقف الفقهاء ورجال الدين وقد ثبت فيما ثبت ، وهو امر بديهي . الآلات الموسيقية فالذين قالوا بالتحريم او الكراهة اجازوا استعمال الطبل والشاهين والقضيب والدف لان الحجاج يستخدمونها وحرموا العود ، يسمى المزهر ايضا ، والصنج والمزمار والرباب .. الخ ويرى الغزالي ان هذه الآلات قد سنت لانها تعادل اهل الشراب والمخنثين . في حين يؤكد الفقهاء الذين حرموها انها تستوفز النفوس وتثير الرغبات والشهوات الحاثة على ارتكاب المحرمات ولا سيما الزنا وشرب الخمر .

× × ×

ولا شك في ان انتشار الغناء والسماع والموسيقى منذ اواسط العصر العباسي الاول اي منذ صدر الدولة العباسية في اواسط واواخر القرن الثاني لاسباب وعوامل عديدة كانتقال الخلافة الى العراق وازدياد الثروات . وكثرة الجواري والقيان والغلمان . والاحتكاك والامتزاج بالفرس والروم والسريان والنبط وغيرهم ، وتقدم وتطور فن الموسيقى والغناء . وازدهار الشعر وتحسن الاحوال الاقتصادية .. الخ .

هذه العوامل وغيرها جعلت الموسيقى والغناء والسماع تتغلغل في جميع الاوساط الاجتماعية لا تقتصر على طبقة دون طبقة ، او فئة اجتماعية دون فئة اجتماعية اخرى . واثارت هذه الموجة ، وموجات المجون والزندقة والبدع والنحل والحركات المشجعة على التحرر والقلق الروحي والفكري والتحلل الاخلاقي . اثار كل هذا موجات مشادة في الوسط الديني . والاوساط الاخرى الميالة الى ادب الجد والاخلاق او الداعية الى اتباع السلف الصالح ، فلم يكن في وسع ائمة المذاهب وجمهور الفقهاء ان يتساهلوا في امر الغناء والموسيقى والسماع فمالوا الى التشدد والصرامة والتزام جانب التحريم والكراهة والنهي والتحذير والترهيب للتخفيف من شدة الموجات والظواهر سالفة الذكر . والحيلولة دون تحولها الى مد جارف يقوض سلطان الاسلام ويشجع حركات الالحاد والزندقة والتحلل . ولهذا رأينا رؤساء المذاهب الاربعة يتمسكون بكراهة الغناء والموسيقى والسماع ويقيدون ما يجيزونه منها بقيود

تعيلة . حتى ان ابا حنيفة والشافعي المذهبين مالا الى التخفيف في بعض امور الدين الفرعية . كانا يحرمين ازاء الغناء والسماع والموسيقى .

وقد تناقلت كتب الفقه والادب المذهبي والمذهبي فتاوى ائمة المذاهب واقوالهم . وكلها تؤكد وتعزز جانب الكراهة . وتصل عند بعضهم الى حد التحريم . وفي هذا يقول الغزالي :

فاما نقل المذاهب : فقد حكى القاضي ابو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وابي حنيفة وسفيان (الثوري) وجماعة من العلماء يستدل بها على انهم رأوا تحريمه[28] . وقال الشافعي رحمه الله في كتاب اداب القضاء : ان الغناء لهو مكروه يشبه الباطل . ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته . وقال القاضي ابو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند اصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء أكانت مكشوفة او من وراء حجاب وسواء كانت حرة او مملوكة . وقال : قال الشافعي صاحب الجارية اذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته . وقال وحكى عن الشافعي انه كان يكره الطنطنة بالقضيب ويقول : وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن .

واما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : اذا اشترى رجل جارية فوجدها مغنية كان له ردها وهو مذهب سائر اهل المدينة الا ابراهيم بن سعد وحده .

واما ابو حنيفة رحمه الله فانه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك سائر اهل الكوفة : سفيان الثوري وحماد وابراهيم والشعبي وغيرهم فهذا كله نقله ابو الطيب الطبري[29]

وقال ابن الجوزي : كان ابو حنيفة يكره الغناء على اباحته شرب النبيذ ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر اهل الكوفة .. الخ واضاف ابن الجوزي : باسناد الى ابي الطيب الطبري اينا : ولا يعرف بين اهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه الا ما روى عبيدالله بن الحسن العنبري انه كان لا يرى به بأسا .

وقد نقل الغزالي احكاما واقوالا لفقهاء اخرين : واتبعها باقوال اخرى تؤيد اباحة الغناء المحافظ او المتحفظ واباحة السماع . وصرح بعد ان انتهى منها بما يفهم منه انه يؤيد جانب الاباحة ويعتمد

(28) الغزالي ، الاحياء ٢٦٩ .
(29) الغزالي نفسه ٢٦٩ .

على الفصل التالي الذي ترجمه بعنوان « بيان الدليل على اباحة السماع » قال :

« اعلم ما نقل في الاقاويل . ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى لم يزدد عدد هذه الاقاويل فيبقى متميزا او مائلا الى بعض الاقاويل بالتشهي . وكل ذلك قصور . بل ينبغي ان يطلب الحق بطريقة بالبحث عن مدارك الخطر والاباحة كما ستذكره[30] وثمة أقوال اخرى كثيرة منسوبة الى ائمة المذاهب الاربع ذكرها الاخرون وتبنى بعضها المتشددون من القائلين بالكراهة والتحريم من الفقهاء المتأخرين ولا سيما ابن الجوزي الذي كان يحرم سماع المتصوفة ويرى انه بدعة خطيرة . مع العلم ان هؤلاء المتشددين وفي مقدمتهم الحنابلة قالوا بجواز التغني باشعار الزهد والوعظ والحكمة . قال ابن الجوزي : « ومن ذلك اشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب الى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات كقول بعضهم :

يا نماويا في غفلة ورانحا
الى متى تستحسن البالحا
وكم انسى كم لا تخاف موقفا
يستغرق الله به الجوارحا
يا عجبا منك وانت مبصر
كيف تجنبت الطريق الواضحا

فهذا مباح أيضا والى مثله أشار أحمد بن حنبل في الاباحة فيما أنبأنا به كاووس عن .. عن ... قال : سمعت ابا حامد الخلالي يقول لاحمد بن حنبل : يا ابا عبدالله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار اي شيء تقول فيها فقال : مثل اي شيء ؟ قلت يقولون :

اذا ما قال لي ربي
أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي
وبالعصيان تأتيني

فقال : اعد علي . فأعدت عليه . فقام ودخل بيته ورد الباب . فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول : ـ الابيات ـ[31] .

ولكن عددا غير قليل من الفقهاء من اتباع المذاهب الاربعة نقلوا عن المتقدمين اقوالا تبيح السماع

(30) نفسه ٢٧٠ .
(31) ابن الجوزي : نفسه ٢١٨ .

والغناء وبجانبه الشعار الغزل العفيف والاشعار الاخرى التي لا تحث على المجون والفحش او تنهى عنه ويدخل من هذا كثير من الاغراض والموضوعات كالمديح والحكمة وانواع عديدة من الرثاء وغيرها . وقد شجع هذا الاتجاه المتصوفة بالذات التمسك باباحة السماع والدعوة اليه حتى صار السماع مقاما من مقامات الصوفية اضف الى هذا ان بين ائمة المذاهب الاربعة من لم يكن متشددا فيما نقل عنه من التحريم او الكراهة .

وقد تناقلت كتب الادب اخبارا من هذا القبيل فابن عبدربه في كتاب العقد ينقل قصة ابي حنيفة مع جارية له كان يشرب معها ليلة ويغني بقول العرجي:

افسامحي واي قتى انسامحوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ولما لم يسع ابو حنيفة صوته في بعض الليالي سأل عنه فقيل له ان الحسن قد اخذوه فذهب الى داره الكوخة وتشفع له فاطلق سراحه . وليس لدينا ما يحملنا على رفض هذا الخبر الدال على ان ائمة الفقهاء لم يكونوا شديدي التعنت في مثل هذه الامور لعدم نزول آية تحرمها صراحة لوجود ما يؤيد الاباحة ولا سيما في الاعياد والمناسبات الاجتماعية الاخرى ونجد اخبارا كثيرة من هذا القبيل في كتب الادب والتاريخ والسير والقصص والحكايات .

× × ×

نقل هذه المقاطيع والتاويل لبعض الايات والاحاديث واقوال الرسول اخيرا واقوال الصحابة واحكام الفقهاء التي ذكرناها تدل كما لاحظ فارمر وغيره ان الاسلام حاول ان يضع قانونا للسماع ؛ استنباطا من هذه الاحاديث والاقوال المتعارضة الغامضة ؛ فاصبحت المذاهب الاربعة التي تحرمه ؛ والاصح كراهته ؛ على الرغم من ان الفقهاء وغير الفقهاء كتبوا مئات الرسائل ليبرهنوا على عكس ذلك ؛ وارى انهم لم يغفلوا عن تاثير الموسيقى الروحي او النفسي كما قال (فارمر) ؛ ولكنهم تمسكوا بالتاثير السيئ المادي يبعث على الزنا والشرب والسفه والمجون .. الخ وليس من المعقول ان يهتموا بتاثير الموسيقى الروحي الايجابي فتشجعهم القرون هذه . علما بان سواد الناس قديما وحديثا يعدون الموسيقى والغناء اول ضرورات اللهو والطرب ويتاثرون بها التاثير الذي يخشاه الفقهاء ويحذرون فلا نتوقع والحالة هذه ظهور الاهتمام بالتاثير النفسي والروحي والتعمق فيه عند الفقهاء ولكن هذا الجانب كان يحظى باهتمام الادباء ومحترفي الموسيقى منذ صدر الدولة العباسية : فقد شغف هؤلاء في ارسافهم واقوالهم هذا التاثير ، ثم جاء الفلاسفة وهم مأثرون بافكارهم من الكتاب والموسيقيين والحكماء والصوفية واخوان الصفا فابتدات مرحلة التفصيل والتحليل والبحث الجمالي في الموسيقى والسماع . وقد ظهرت البوادر القوية الاولى لهذه المرحلة منذ اوائل القرن الثالث الهجري متمثلة في شخصية الكندي فيلسوف العرب ويحيى بن علي المنجم وما نقله ابن خرداذبه وسائر الذين استفادوا من الكتب والرسائل المنقولة عن اليونانية والسريانية والفارسية .

لقد كان تاثير الموسيقى الروحي او النفسي معروفا اذن قبل الاسلام وبعده ولا سيما في المعابد والكنائس . ولهذا وقف الاسلام موقفا خاصا متميزا كما مر بنا . ومن هذا التاثير او التاثر يقول فارمر متحدثا عن تاثير الذكر حيث صنع الصوفي والساحر من تدبير الزمن سيطرتهما العجيبة على النفس [٣٢] ولما بدات وتشعبت حركة التدوين والتاليف اتضح هذا الامر ايما تناوله الرواة واثبته الاخباريون والمدونون وفيما كتبه الادباء والموسيقيون الكبار والرواة والقصاص وجامعو التراجم والسير ، حتى اننا لو حاولنا جمع ما ورد في مؤلفات العصر العباسي الاول وحده (١٣٢ ـ ٢٤٧هـ) عن الذين جنوا من سماع الغناء او ماتوا او تاموا باغان غريبة ، وما ذكروه عن تاثير الموسيقى في الحيوان كالابل والخيل والظباء والغزلان والطير والنحل والسمك والاناسي لاحتجنا الى مجلدات ضخمة . ولو فعلنا ذلك لوجدنا لدينا كتاب كبير . وفي كتاب الحيوان للجاحظ نماذج كثيرة من هذه المادة متفرقة هنا وهناك تقدم لنا نماذج من هذه المادة الواسعة كقوله في فصل (الحيات) « واثر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه اعجب ، فمن ذلك ان منه ما يقتل كصوت الصاعقة . ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتفاق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل الاغاني الطروبة . ومن ذلك ما يكمد . ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الاصوات المشجية والقراءات الفاضحة . وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني لانهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم . وقد بكى ما سرجويه من قراءة ابي الخوخ وقيل له كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ فقال : انما ابكاني الشجا . وبالاصوات يتوهمون العجبان والاطفال . والدواب تصغي اذانها اذا غنى المكاري . والابل تصغي اذانها اذا حدا في آثارها

---

(٣٢) فارمر ٤٠ .

الحادي . وتزداد نشاطا وتزيد في مشيها ويجمع بها (اي بالامهات : الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له . وذلك انهم يضربون بعصا معهم ويخلطون فتقبل اجناس السمك شاخصة الابصار مصغية الى تلك الامهات حتى تدخل في الحظيرة . وتشرب بالعاسلم للطير وتصاد بها . ويشرب بالماس للاسود يرمد فيلتمس منه الامهات . وقال صاحب المنطق : الابائل تصاد بالصفير والغناء وهي لا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت ، فيشغلونها بذلك ويأتون من خلفها فان نارحتها مسترخية الاذان وثبوا عليها . وان كانت منتصبة الاذنين فليس اليها سبيل والصفير تسقى به الدواب الماء . وتنفر به الطير من البذور ... الخ فالحية واحدة من جميع اجناس الحيوان الذي للصوت من طبعه عمل .. الخ (٢٢) وقد توسعت وتشعبت هذه المادة في العصور التالية ولا سيما في كتب المتصوفة وجاء في الطرائف والنوادر والاسمار التي تكون عادة نوعا خاصا من الخرافات والاساطير المخترعة وابطاله من الحيوان والطير والزواحف والحشرات فضلا عن الانس والجن . فالطير والوحش كانت تصغي الى النبي داود (ع) والانتين والسبعين نغمة التي تصدرها حنجرته المباركة وبعض من يسمعه يموت من الطرب وقد اصبح ما ورد عن صوت داود وموسيقاه في القرآن الكريم وفي كتب التفسير من أهم حجج انصار اباحة الموسيقى والغناء والسماع حتى لا تكاد تخلو رسالة او كتاب من ذكره(٢٣) . وقد عرف العرب من قديم الزمان قوة الموسيقى الخفية ومنافعها . فهم يرون الجمل يسهل قيادة الالحان . والحيات تسحر والنحل ترعى في النار(٢٤) والطير تهوى سماع صوت الموسيقى(٢٥) . وتظافر القولان يسهل سيدها وقيادها بالاصوات المتضمنة والالحان، وانبهرت العرب بعد الاسلام بما في لغة القرآن من موسيقى تصويرية معجزة .. وبطول الكلام لو مشينا نتحدث عن ادراك العرب لتاثير الموسيقى منذ القدم ونرى بوضوح الدقة كامنة في الشعر العربي وايقاعه وعناصره ومقاييسه وتراكيبه وشدده والتوائه بما يختلف عن سائر الشواهد والبراهين . ولكن السؤال الذي كان وما زال يجول في الاذهان هو : ما هي الصلة بين هذه الموسيقى الروحانية النافعة وتلك الموسيقى التي يرى الفقهاء انها تدعو للسكر والزنا وغيرها من

(٢٢) الحيوان ١/٧٧ ـ ٧٨ ط . دار الكتاب اللبناني .
(٢٣) انظر : العقد الفريد : ٢/١٧٩ ، كشف المحجوب .
(٢٥) العقد الفريد ٣/١٧٧ .
(٢٦) الاغاني ٥/٥٢ الغزالي : الاحياء ٢١٩ .

الرذائل ! يرى فارمر ان الصوفية قد اجابوا عن هذا السؤال بمثل قول الداراني (/٨٢٠م) : « السماع لا يجعل من القلب ما ليس فيه ولكنه يظهر ما فيه » اعني الصوفية . قد جعلوا الناس صنفين كما فعل الحجويري صاحب كشف المحجوب .

١ ـ الذين يسمعون المعنى الروحي
٢ ـ والذين يسمعون الصوت (المادي)

ويقول : ولكل حالة نتائجها الطيبة ونتائجها السيئة وان استماع الاصوات المتضمنة يخلو الجوهر الذي صيغ منه الرجل . فان كان الجوهر نقيا اثار النقاء . وان كان خبيثا اثار الخبث . واذا كان مزاج الانسان فاسدا فانه يستمع الى ما هو فاسد ايضا . ثم يعقب قائلا : والسماع الحق انما يكون في سماع الاشياء كما هي في حقيقتها . ثم يورد اقوال الصوفية كقول ذي النون : السماع تاثير الهي يحرك القلب لرؤية الله (الصوفية) وان اولئك الذين ينصتون بارواحهم يسلون الله . اما الذين ينصتون اليه بحواسهم وشهواتهم فيسقطون في المعصية »(٢٨).

واقوال الصوفية كثيرة في هذا الاتجاه في تحليل وتاويل التاثير بالموسيقى والسماع . وزاد الحجويري السابق عن الجوهر النقي والجوهر الخبيث وعلاقته بالتاثير الموسيقي مستمدا من الفلاسفة الاغريق : وقد رددد المترجمون والفلاسفة المسلمون وعلماء الموسيقى وسائر المتاثرين بالثقافات المنقولة . وقد سار الفضل الذي كتبه الغزالي في الاحياء خير ممثل لهذا الاتجاه التحليلي لتاثير الموسيقى خير تصوير كما سنرى بعد قليل .

والفرق بين هذه المرحلة المتعمقة في تفسير التاثير بالموسيقى والسماع . سواء كانت فلسفية او صوفية بالمرحلة السابقة التي مثلتها اقوال الاجيال الاولى من الادباء والاجيال التالية التي تابعتهم والتي تبنتها الاجيال الاولى من علماء الموسيقى والمؤلفين فيها ابتداء من الخليل بن احمد الفراهيدي فابراهيم الموصلي فابنه اسحاق فابراهيم بن المهدي .. الخ الفرق هو ان اهل الادب قرنوا الموسيقى والغناء والسماع بالشعر . وفصلوا الكلام ليشتهوا الى القول بانهما كالشعر .. حسنه حسن وقبيحه قبيح . فهي اذن غير محرمة بل مباحة . وهي ايضا غير مكروهة مطلق الكراهة . انما المكروه هو تبيحوه ويعنون بذلك الاشعار وربما الالحان المعانة على المعصية . وواضح ان هذه النظرة سطحية ولا يصح

(٢٧) الاحياء ٢٢٠ .
(٢٨) كشف المحجوب ٤٠٢ ـ ٤٠٣ وانظر فارمر ١٨ .

اعطاؤها الابعاد الجمالية الاستطيقية التي ادركها نقاد الشعر الاقدمون ولا سيما المتأثرون بأرسطو . فتبيين الشعر معروف لان المعنى هو الذي يبينه ويحدده ولكن ما هو تبجيح النغم الذي يتجع او يؤدي الى الفعل القبيح ! ولو سلمنا بأنهم يعنون او يقصدون بعض الالحان التي من طبيعتها اثارة الشهوات والتحشيش على ارتكاب الافعال المحرمة والمكروهة فهل كل من يسمع اللحن نفسه سواء كان عالما او حكيما او زاهدا او رجلا عاميا يشعر بنفس الشعور ويندفع لاقتراف العمل المحرم نفسه ؟ وأرى ان استمارة حجج اباحة الشعر المستندة الى موقف الرسول(ص) وصحابته(رض) من الشعر والشعراء واستخدامها لاباحة الغناء والموسيقى والسماع بالطريقة اللبقة التي اتبعها ابن عبد ربه وابن قتيبة واوائل النقاد لاتقدم الاجوبة الشافية عن هذه الاسئلة وامثالها . الا انها قوية وسليمة من وجهة النظر الفقهية لان الفقهاء يهمهم المعنى المفهوم ولا يهمهم الفن من حيث هو فن . ولهذا يكاد يتشابه موقفهم من كلا الفنين فن الشعر وفن الموسيقى والغناء والسماع ؛ وهو موقف يتعرض لنفس العوامل الضعف لان القرآن والسنة لم تقطع بتحريمهما ؛ فضلا عن انهما اي القرآن والسنة يتضمنان حججا من جانب الاباحة لكلا الفنين وان كانت هذه الاباحة مقيدة ببعض القيود . ولا شك في ان العرب والمسلمين نقادا او غير نقاد : كانوا اقدر على فهم وادراك (فنية) الشعر اما ادراكهم (لفنية) اللحن فكان ضعيف بكثير . ولهذا كانت قضايا الشعر الفنية وما زالت تغذي قضايا الموسيقى ، لا في ميدان الجدل الفقهي وحده بل في ميادين النقد التقني والاستطيقي فتواثبت لذلك مراحل تطورهما ؛ فكما ان نقد الشعر كان يتقدم القرنين الثالث والرابع ليكسب ابعادا وعناصر جديدة ؛ وينتقل الى مرحلة اعلى وارقى بتأثير امتزاج الاقوام والثقافات وتطور الحياة الفكرية والعلمية والاجتماعية .. الخ كانت الموسيقى بما حققته من انتشار وتطور واكتشافات تنتقل هي ايضا من مرحلة تقنية ونقدية وفكرية ادنى الى اخرى اعلى واغنى واعمق : كانت تتحول من مرحلة التذوق والتحليل البسيط الى مستوى التذوق الفني والجمالي والتحليل النفسي والفلسفي والصوفي . ولعل مؤلفات الكندي فيلسوف العرب وان لم يكن المؤلف الوحيد في هذا العصر خير ما يمثل هذه النقلة . فالاخرون من الف في الموسيقى رغم كثرة : كيحيى بن علي آل المنجم وابن خرداذبه وثابت بن قرة والسرخسي وغيرهم كثير لا يدانون الكندي في عقله الفلسفي فبعضهم كالسرخسي كانوا من تلاميذه[٢٩] . والفت بضع مئات من الرسائل والكتب بين عصر الكندي وعصر الغزالي وابن سينا وهي مدة تقارب القرنين . وقد عد منها فارمر نحو ٢٥٠ كتابا ورسالة . منها في ذم الملاهي وتحريم الموسيقى والسماع ؛ ومنها ما كان في الدفاع عنها وتقريظها وتعليلها واباحتها . واكبر الظن ان كتب التراجم والفهارس تحوى اكثر من هذا العدد ؛ واكبر الظن ايضا ان المواد والعناصر والحجج التي وفق الغزالي في ايجازها وعرضها في كتاب الاحياء لم تكن خالصة له . لانها هي نفسها كانت الشغل الشاغل لذلك الفيض الغزير من الرسائل والدراسات التي سبقت الغزالي او ظهرت في عصره . ولكن اطلاعه الواسع ؛ وثقافته الفلسفية والفقهية العميقة ، وايمانه القائم على العاطفة والعقل معا ، وتوجيه المتواصل نحو التوفيق بين الفكر الفلسفي والفكر الديني ؛ وبين الفقه والتصوف ، وبين مشاغل الفكر وحقائق المجتمع القائم في عصره وقبل عصره ؛ وهي التي فرضت بقاء الشعر والغناء والموسيقى والسماع ؛ ثم المنزلة العلمية والدينية والفقهية الرفيعة التي وصل اليها الغزالي والاحترام الوقور الذي حظي به في الاوساط العلمية والشعبية كل هذا جعل الفصل الذي ابدعه في كتاب الاحياء يبدو وكانه الحد بل الفتوى الحاسمة في تاريخ المشكلة المزمنة بين الفقه والموسيقى والسماع بوجه عام ، وبين الفقه والنظريات والتطبيقات الصوفية في السماع بوجه خاص ، وميزة الغزالي في فصله هذا لا في تناول عناصر المشكلة وموضوعاتها الرئيسة بل في تنسيقها وبحثها بطريقة منهجية ؛ اي في (منهجتها) ان صح هذا التعبير لقد بدا بايجاز قضية التحريم والكراهة والاباحة واوجز حجج اصحابها وناقشها ، وانتهى الى ان تحريم السماع لم يقم على نص ولا قياس على نص وقد عرضنا في بداية هذا البحث اهم تلك الحجج والادلة فلا ضرورة للاعادة هنا . ولكن الغزالي لم يدخل في هذا الموضوع الجاف رأسا بل مهد له بلطف يشوق القارىء اذ تكلم اولا عن السماع وتاثيره في الانسان والحيوان ولكن بايجاز ثم انتقل الى تحليل الغناء وعناصره وهي الاصوات وصفتها الى صوت طيب . وصوت طيب موزون ثم كلام موزون مفهوم وعرف الشعر ؛ وقال انه ليس فيه (يعني الشعر) الا في كونه مفهوما . ثم اورد الحجة التي تداولها الادباء والنقاد واستند الى قول الشافعي ؛ وتلك براعة ولباقة لا يجيدها الا العلماء من طرازه . فالاستناد الى كلام

---

(٢٩) انظر فارمر / ٢٠٠ ـ ٢٠٥ .

اديب شيء . والى امام مذهب كالشافعي شيء آخر وهي : ان الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح . ثم ينتقل الى موضوع تحريك السماع للقلب وتأثيره في المشاعر واعضاء الجسم ويقرر ان لله تعالى حكمة في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا . فمن الاصوات ما يفزع ومنها ما يحزن ومنها ما يهوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها بالعيد والرجل والراس ولا يخفى ان ذلك يفهم معاني الشعر بل هذا جار في الاوتار حتى قيل : من لم يحركه الربيع وازهاره والعود واوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج فهو يقرر هنا ان التاثر بالشعر الموزون النغم او لمجرد الانغام لا يشترط فيه الفهم ويستشهد باستجابة الاطفال والحيوانات .. الخ المهم انه ينتهي الى القول بان : تاثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجماد والطيور بل على سائر البهائم فان جميعها تتاثر بالنغمات الموزونة . وبناء على هذا يؤكد ان النظر في السماع باعتبار تاثيره في القلوب لا يجوز ان يحكم فيه مطلقا باباحة ولا تحريم : بل يختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص والنغمات .

وينتقل الغزالي من هنا الى تفصيل هذا الاختلاف باختلاف الاحوال وهي عنده ثلاث مستحب ومباح ومكروه وحرام فالمستحب لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة والمباح لمن لاحظ له من السماع الا التلذذ بالصوت الحسن ، والمكروه ان لا ينزله على صورة المخاوقين اي لا يتمثل ويصور تاثره بالنغم في صورة مخلوق وهنا يريد الغزالي فيما يبدو دحض حجج بعض الفقهاء الذين حملوا على المتصوفة ولا سيما الحجة القائلة بان الحب ، يقصدون الحب الالهي الصوفي ، وسماع الاشعار في حب الله كفر لان التصور يسبب بدفع الانسان الى تصور صورة من يحب وعادة البشر من هذا ان يتصوروا المحبوب بشكل امراة او صبي او اي شيء مخلوق او (مادي) آخر ، وقد عاد الغزالي الى هذه المقولة بتفصيل اكثر بعد ذلك حين اكد ان حب الامور المعنوية لا يفيض مثل هذا التصور كحب الخير والفضيلة وسائر المعنويات ، وهو هنا متاثر بالفلسفة الاغريقية ولا سيما فلسفة ارسطو . اما الفقهاء فوجهة نظرهم اقرب الى الديالكتيكية او الجدلية من غير ان يتفلسفوا لانهم منطلقون من الفلسفة وطريقة الفلاسفة .

اما السماع الحرام فهو لاكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليه شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منه الا ما هو الغالب على طباعهم من الصفات المذمومة . ثم ذكر الغزالي الغناء والسماع المباح كغناء الحجيج والغزاة والفرسان المحاربين والنياحة المحمودة لا المذمومة . والسماع في اوقات السرور في الاعياد والاعراس وقدوم الغائب والوليمة والولادة والختان وحفظ القرآن وغيرها مما اعتاده الناس . ثم سماع العشاق تحريكا للشوق وتسلية للنفس ثم سماع من احب الله سبحانه وتعالى وشغله واشتاق الى لقائه فلا ينظر الى شيء الا راى فيه ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه او فيه ، ويشرح الغزالي هذا الضرب السابع من السماع المباح في نظره . وهو من اهم موضوعات هذا الفصل لان الغزالي وان كان يستمد بعض عناصر الموضوع من المصادر السابقة الا انه استطاع ان يبلورها بمنطقه واسلوبه المعروف وخلاصة قوله ان سماع المتصوفة يستثيرهم ويتنهي بهم الى الوجد الصوفي ، وهو مشتق من الوجد والمصادفة اي صادف من نفسه احوالا لم يصادفها قبل السماع تنقي قلبه من الاكدار ويحصل بهذا الصفاء مشاهدات ومكاشفات هي غاية المحبين لله . ويؤكد الغزالي ويزيد امكان حب الله لانه مصدر الوجودات كلها فلا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم الا وهو حسنة من حسناته واثر من آثار كرمه ...الخ .

ويطول البحث لو سنينا في تلخيص اقوال الغزالي وحججه ويمكن قراءتها من كتاب الاحياء وقد لخص هذا الفصل وكتب عنه غير واحد من الباحثين واوجزه مؤخرا ابو زيده في مجلة العربي (٤) بطريقة تجعل القارئ يفهم ابرز ما جاء في فصل السماع والوجد من كتاب الاحياء .

المهم ان الغزالي نجح في ان يوفق بين الفقهاء والمتصوفة في هذا الموضوع لما وفق في غيره مستفيدا مما كتبه سابقوه من فقهاء وعلماء وفلاسفة وصوفية وموسيقيين وغيرهم ممن صنف في هذا الباب ، ففي كتابه عناصر تقرأ عنها عند الكندي وثابت بن قرة والفارابي وابن سينا وفي رسائل اخوان الصفا وعناصر تناولتها كتب الادباء ورسائلهم من امثال الجاحظ وابن قتيبة وابن عبدربه .

اما المتصوفة فقد اشار الغزالي الى عدد منهم واقتبس اقوالهم . وقد فصلت كتبهم مقولات

---

(٤) محمد عبدالهادي ابو ريده مقال : الغناء والموسيقى مجلة العربي ، العدد ٢٥٢ ، تشرين الثاني ١٩٧٩ .

الصوفية ومواقفهم كرسالة القشيري واللمع للكلاواذي والكشف للهجويري وغيرها . وقد فاقهم الغزالي في عرض الموقف باسلوبه المختصر المفيد . وقد وفق الغزالي في ان يكون ما كتبه فاصلا او حاسما في هذا المجال فلم يخف الذين كتبوا بعده جديدا وان تضخم الموضوع عند بعضهم من المتاخرين كالنويري في نهاية الارب لانه اقتبس تفاصيل كثيرة لما ذكره الغزالي وذكر كل ما جاء في الاحياء تقريبا موزعا اياه بين الموضوعات . وثبتت الاوساط الاسلامية بعد الغزالي هذا الموقف من الغناء والموسيقى والسماع وانضم الى جانبه عدد كبير من الفقهاء . ولم توفق بعض الحركات الدينية في التاريخ الاسلامي التي تشددت في امر الغناء والسماع او حرمته او منعت وحرقت كتاب الغزالي ام تفلح في حمل جماهير المسلمين على تغيير موقفهم الايجابي بعد ان رسخه الواقع التاريخي للاجيال الاسلامية المتعاقبة .

ويبدو ان عصرنا الحاضر قد حرك القضية واثار المشكلة بعد ظهور الاذاعة والتلفزيون والمسجلات واتساع وجهات التاثير لخطير لشرور الاغاني المبتذلة والسينما التجارية والبرامج الاذاعية والتلفزيونية غير الملتزمة بسياسة ثقافية واعلامية واجتماعية وروحية رصينة . وقد اهتم بامر الغناء والموسيقى والسماع والفنون بوجه عام عدد من رجال الفكر الديني او الملتزمين به من المعاصرين منهم ولكن لم يحرمها احد منهم وان اختلف الشدد ومقدار التزمت من مفكر الى آخر . ولا اظن ان القرن الخامس عشر الهجري سيغير الموقف التقليدي للمفكرين والجماهير الاسلامية ازاء هذا الفن بوجه خاص . وان كان الحاضر والمستقبل يتجه الى بلورة سياسة ذات مواقف وعناصر واهداف واضحة على ضوء الواقع الجديد لعصر التلفزيون والمذياع والمسجل .

*